



مقدمة: [1]

في هذه المرحلة الحرجـة .. لا بدّ منْ أنْ نقف على فـقه السنـن الـربـانـية في الأمـم والـحـضـارـات والـدولـ، التي تحـكم سـيـرـورـةـ المجتمعـاتـ والأـمـمـ والـثـورـاتـ، والتي هي بمـثـابةـ قـوـانـينـ صـارـمـةـ لاـ تـجـاـمـلـ نـبـيـاـ مـرـسـلاـ وـلـاـ ولـيـاـ مـقـرـباـ وـلـاـ أـمـةـ منـ الأـمـمـ ..

1. خـصـائـصـ السـنـنـ الـربـانـيةـ

في هذه المرحلة الحرجـةـ منـ تـارـيخـ أـمـتـناـ، وأـمـامـ هـذـهـ التـبـدـلـاتـ الـحـضـارـيـةـ، التيـ تـطـرـأـ عـلـىـ بـلـدـنـاـ "ـسـوـرـيـةـ"ـ وـعـلـىـ الـمـنـطـقـةـ بـشـكـلـ عامـ، لاـ بدـ مـنـ أنـ نـقـفـ عـلـىـ فـقـهـ السـنـنـ الـربـانـيةـ فيـ الأمـمـ والـحـضـارـاتـ والـدولـ، والتيـ تحـكمـ سـيـرـورـةــ المجتمعـاتـ والأـمـمــ والـثـورـاتــ، والتيـ هيـ بمـثـابةـ قـوـانـينـ صـارـمـةـ لاـ تـجـاـمـلـ نـبـيـاـ مـرـسـلاـ وـلـاـ ولـيـاـ مـقـرـباـ وـلـاـ أـمـةـ منـ الأـمـمــ هناكـ أـمـةـ هيـ أـبـنـاءـ اللـهـ وـأـحـبـاؤـهـ، وـلـيـسـ هـنـاكـ شـعـبـ مـخـتـارـ، منـ رـاعـ هـذـهـ السـنـنـ رـاعـتـهـ، وـمـنـ اـصـطـدـمـ بـهـاـ انـحـدـرـ وـهـزـمـ وـسـرـتـ عـلـىـ هـذـهـ السـنـنـ، وـلـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـغـيـرـ مـنـ سـنـةـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ شـيـئـاـ.

فالـسـنـنـ الـربـانـيةـ مـطـرـدـةـ، إـذـاـ وـجـدـتـ مـقـدـمـاتـهاـ لـاـ بدـ أـنـ تـفـضـيـ إـلـىـ النـتـائـجـ، فـالـذـيـ يـقـدـمـ مـقـدـمـةـ الـظـلـمـ وـالـاستـعـلـاءـ فـيـ الـأـرـضـ، لـاـ بدـ أـنـ يـحـصـدـ نـتـيـجـةـ الـقـصـمـ وـنـتـيـجـةـ الـهـلاـكـ وـالـبـوـارـ، وـالـذـيـ يـقـدـمـ مـقـدـمـةـ الـخـذـلـانـ وـالـفـرـقـةـ لـاـ بدـ أـنـ يـحـصـدـ نـتـيـجـةـ الـهـزـيمـةـ هـذـاـ فـيـ سـنـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ، قـالـ تـعـالـىـ: {وـأـقـسـمـوـاـ بـالـلـهـ جـهـدـ أـيـمـانـهـ لـئـنـ جـاءـهـمـ نـذـيرـ لـيـكـوـنـ أـهـدـىـ مـنـ إـحـدـىـ الـأـمـمـ فـلـمـ جـاءـهـمـ نـذـيرـ مـاـ زـادـهـمـ إـلـاـ نـفـورـاـ * اـسـتـكـبـارـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـمـكـرـ السـيـئـ وـلـاـ يـحـقـ الـمـكـرـ السـيـئـ إـلـاـ بـأـهـلـهـ فـهـلـ يـنـظـرـوـنـ إـلـاـ سـنـتـ الـأـوـلـيـنـ فـلـنـ تـجـدـ لـسـنـتـ اللـهـ تـبـدـيـلـاـ وـلـنـ تـجـدـ لـسـنـتـ اللـهـ تـحـوـيـلـاـ} [ـفـاطـرـ: 42، 43ـ].

وـهـيـ عـامـةـ لـاـ خـصـوصـ لـهـاـ، تـسـرـيـ عـلـىـ كـلـ أـمـةـ وـعـلـىـ كـلـ جـمـاعـةـ مـهـمـاـ تـزـيـئـ بـشـعـارـاتـ التـدـيـنـ فـإـنـ صـادـمـتـ هـذـهـ السـنـنـ، لـاـ بدـ أـنـ يـحـصـدـ نـتـائـجـهاـ.

وـهـيـ شاملـةـ لـكـلـ الـظـرـوفـ وـالـأـحـوالـ لـاـ استـثنـاءـ لـهـاـ، لـقـدـ هـزـمـ الصـحـابـ الـكـرامـ فـيـ أـحـدـ وـهـمـ يـقـاتـلـونـ تـحـتـ قـيـادـةـ النـبـيـ مـحـمـدـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ، وـلـقـدـ اـنـتـصـرـ الـكـفـارـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ وـهـمـ يـقـاتـلـونـ تـحـتـ رـايـةـ كـفـرـيـةـ، فـلـاـ بدـ أـنـ مـرـاعـاتـ هـذـهـ السـنـنـ لـاـ تـجـاـمـلـ {ـلـيـسـ بـأـمـانـيـكـمـ وـلـاـ أـمـانـيـ أـهـلـ الـكـتـابـ مـنـ يـعـمـلـ سـوـءـاـ يـجـزـهـ} [ـالـنـسـاءـ: 123ـ].

2. سـنـةـ الـابـلـاءـ لـحملـةـ الرـسـالـةـ

وـأـولـ السـنـنـ الـتـيـ يـجـبـ أـنـ نـعـيـهـاـ هـيـ أـنـ الـثـورـةـ عـلـىـ الطـغـاةـ الـظـالـمـيـنـ لـيـسـ طـرـيـقاـ مـفـرـوشـاـ بـالـوـرـدـ وـالـرـيـحـانـ وـالـحـرـيرـ، وـإـنـماـ

هو درب ابتلاء ومقارعة لقوة جباري الأرض، {إِنْ تَكُونُوا تَالِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء: 104]، فلا بد لهذا الطريق من تضحياتٍ، ولا بد من أن يذوق السائرون إليه شيئاً من الابتلاءات، فالبلاء سنةٌ ربانيةٌ في كل الجماعات والأمم والدول التي تريد أن تحمل رسالة الله عز وجل، (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه، فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بامشاط الحديد ما دون عظمه من لحمٍ وعصبٍ ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صناء وحضرموت ما يخاف إلا الله تعالى، والذئب على غنه ولتكنكم تعجلون) [2]

وإنّ ما يحصل من بلاء في ثورتنا، من هدم بيوت وتهجير الآمنين وقوافل الشهداء وأнат التكالى وبكاء اليتامي وحزن الأرامل، وما يحصل في سوريا الحبيبة إنما هو مقدماتٍ، ما هو إلا مخاضٌ عسيرٌ أمام فجرٍ يوشك أن يصبح في هذه الظلمة التي طال انتظارنا لتنشع بصبح الفاتحين إن شاء الله. والحمد لله رب العالمين. {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 156].

وهنا علينا أن نتذكر قول الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْدِدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55].

فالوعد الإلهي بالتمكين دائمٌ بين الوعد والشرط، والإيمان والعمل الصالح، الإيمان بمعنى التصديق بموعد الله عز وجل: أن نؤمن أول شيءٍ أتنا منصورو، وأنّ كلمة الله هي العليا، وأنّ بعد هذا الليل البهيم فجرٌ جديدٌ مشرقٌ بعز الإسلام والمسلمين، وبانتصار هذا الثورة المباركة، {وعملوا الصالحات} لا بد من تسخير أعمالنا الصالحة لصالح نصرة قضيتنا، ولا بد من توسيع مفهوم هذا العمل الصالح ليشمل كل نوع عملٍ ينفع الإسلام والمسلمين، ويصبّ في صالح ثورتنا المباركة، ولا نختزل مفهوم العمل الصالح بمفهوم العبادات الشعائرية التعبدية الممحضة، العبادات الشخصية، منفصلة عن نشاطنا الاجتماعي، وحرakan الثوري في سبيل رفع الظلم عن المظلومين.

3. الاستخلافالجزئي اختبار إلهي

إن الاستخلاف في أجزاء من بلدنا نصرٌ هو بحد ذاته وهو اختبار إلهي للأمة التي أنعم الله عز وجل عليها بهذا الاستخلاف وبهذا التمكين، كيف ستتصرف بهذه القوة؟ وقد خاطب سيدنا موسى عليه السلام قوله فقال: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129].

وقد أدرك سيدنا موسى عليه السلام هذا المعنى منذ قديمٍ قبل أن تأتيه النبوة لماً أكرمه الله عز وجل أن كان من أولي العزم من الرسل وقتل نفسها عندما وكزها وقال: {قَالَ رَبِّي مَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص: 17]. رب بما أنعمت علي من القوة فلن أجعل هذه القوة لمظاهره الجبارين وال مجرمين في الأرض، لذلك - أيها الإخوة - إن من سنة الله عز وجل أن يوجد الله على أمّة من الأمم بالتمكين الجزئي على جزء من الأرض وفي جزء من القوة وعلى جزء من الناس، فإن أدوا حق الله عز وجل وقاموا بالقسط وأقاموا العدل بين الناس والرحمة والرعاية جاد الله عليهم بالتمكين الكلي، وإن أساووا استعمال النعمة وغرتهم القوة وقسوا على الناس وظلموا وجاروا أعادهم الله إلى وهدة الاستضعفاف، وأركسهم في ذل المهانة والضعف من جديد، لأنهم لم يرعوا حق نعمت الله عز وجل عليهم، لقد قص الله عز وجل علينا قصة مدينة كان يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكترت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الخوف والجوع، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَّا فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٌ عَنْ يَمِينِ وَشِمَاءِ لَكُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بُلْدَةً طَيْبَةً وَرَبُّ غُفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتٍ أَكْلٍ حَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزِيَّتُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي

فلانظر إلى هذه الثورة المباركة على أنها نعمة من نعم الله عز وجل التي أسدتها إلينا لتكون بوابتنا نحو الحرية وإقامة شرع الله عز وجل وإقامة العدل بين الناس، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فلنحمد الله عز وجل على هذه النعمة ولا نكفرها، عسى أن يديمها الله عز وجل علينا، وأن يتمها علينا بالنصر والتمكين بإذن رب العالمين.

و هنا علينا أن ندرك أمراً مهما وهو أن مفهوم الثورة في أبسط تعريف له هو عملية تغيير، وانتقال من وضع سلبي إلى وضع إيجابي يتطلع إليه الشعب التأثير، ولكن هذا التغيير يجب أن لا يحصر في منحى التغيير السياسي فقط، وإن الثورات التي تقصر على تغيير الوضع السياسي لا يؤمن عليها أن تعيد إنتاج طواغيت بشكل آخر، وإنما يجب أن تكون الثورات حركة تغيير في كل الجوانب، في الجانب التربوي، في جانب الأفكار، في جانب الأخلاق والقيم، فالآمة التي لا تغير من أفكارها البالية، ومن أخلاقها المنحطة، تراوح في مكانها، وتحفر لنفسها حفراً من السقوط، قد لا يكون الاستبداد السياسي هو سبب في انحطاطه.

لا بد أن يكون مسارنا الأصلي والأصلي هو تحقيق التغيير في كل جانب، مستخدمن كل وسلية، كالدعوة إلى الله عز وجل، وال التربية، والإعلام، وغرس الأفكار وغرس القيم في المجتمع، حتى تنتج هذه الثورة مجتمعاً فاضلاً بعد إسقاط النظام، أما إن أسقطنا النظام ونحن لم نتغير في أخلاقنا، ولم نتغير في تصرفاتنا وأفكارنا، فما زدنا إلا أن استبدلنا بمستبد آخر. فالنصر - أيها الإخوة - قد يخطر في بال الكثير أنه يقف عند الانتصار العسكري، والحقيقة أن الآمة التي تريد أن تنتصر نصراً استراتيجياً، لا بد أن تقطع انتصارات مرحلية في مجال الإعداد والبناء والتربية والدعوة وترسيخ الأخلاق، حتى يتوج كل هذا النصر بنصر كبير يعبر عنه بتمكين الآمة والجماعة الإسلامية في أرض الله عز وجل.

4. الثورة وسنة المدافعة

ونحن إذ نبحث عن النصر وننطلع إليه مع حالة الضعف التي نعيشها علينا أن نعي سنة أخرى من سنن الله عز وجل وهي أن الله عز وجل أقام الصراعات على وجه الأرض على سنة المدافعة، قال تعالى : {وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 251].

وقال تعالى في آية أخرى: {وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَهُدِمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ} [الحج: 40].

فقد وردت سنة المدافعة في موضوعين من كتاب الله في موضع الكلام عن فساد الدنيا وفي موضع الكلام عن فساد الدين، وهذه السنة تعصم الدنيا من أن يفسدها الطغاة، وتعصم الدين من أن يفسده الطغاة، وهذه السنة أبداًية أزلية مستمرة منذ أن خلق الله عز وجل آدم وناصبه إبليس العداء، إلى أن يقتل المسيح عيسى بن مريم المسيح الدجال في آخر الدنيا.

وواجهنا نحن المسلمين نحو هذه المدافعة: أنه لا بد من استثمار هذه السنة ولا بد من الاستفادة منها، فقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم في حماية رجل كافر هو المطعم بن عدي، بعد أن رجع من رحلة الطائف وقد توعّده قريش بالإيذاء والقتل، فأرسل للمطعم بن عدي وطلب أن يدخل في جواره، وقد احتوى النبي صلى الله عليه وسلم بقبيلته وعشائرته، وكان يجد في عمه أبي طالب الدرع الحصين والمظلة التي يحتمي بها من أذى قريش، فيمنعه الله عز وجل بعشائرته وقبيلته، وقد تحالف النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية مع قبيلة خزاعة، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، هذا كله من باب سنة المدافعة، {وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 251].

فلا يمكن أن يجتمع الكفر كله على رأي واحد، وعلى معسكر واحد، لا بد أن يدب الله الخلاف فيما بينهم. وفي هذه السنة ينتفع المسلمون المستضعفون، ولا يجوز أن نحجر على أنفسنا واسعاً، ولا بأس شرعاً وعقلاً أن يدخل

ال المسلمين في تحالفاتٍ، وأن يستعينوا ببعض الكفار على البعض، وقد هاجر الصحابة الكرام إلى أرض الحبشة، وامتدح النبي صلى الله عليه وسلم ملكها، فقال لأصحابه: (لو خرجمت إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد) [3] وأحياناً يكون الصراع بين الباطل والباطل، يمكن أن يكون صراعاً دينياً، هنا يجب على المسلمين أن يقفوا عند أقرب معاشرين إلى الحق وأنفعهم للمؤمنين، فلماً وقع الصراع بين الفرس والروم كان الصحابة الكرام يتمنون لو انتصروا على الفرس لأنهم أهل كتابٍ، وقد أنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً يتلى قال تعالى: {غُلَّبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} [الروم: 2-4].
إذاً أيها الإخوة: هذه السنة يجب أن لا نلغيها من حساباتنا وأن نستعدّي العالم علينا، فإن تحديد الأعداء والاستعانتة ببعضهم على بعضٍ من السنن الكونية التي أقام الله عز وجل عليها الكون، ومن السنن الشرعية التي عمل بها نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم، ونحن في سبيل نصرة ثورتنا لا بدّ من الأخذ بهذه السنة والاستعانتة ببعض من يخالفنا بالدين على بعض، حتى يكتب الله عز وجل لهذه الثورة النصر والتمكين، والحمد لله رب العالمين.

1 - الخطبة مقتبسة من رسالة للشيخ عباس شريفة بنعون (بين الثورة السورية والسنن الكونية)

2 - البخاري: 3612، أبو داود: 2648 واللفظ له

3 - سيرة ابن هشام: 1/321